

المحاضرة الخامسة: نماذج تطبيقية للتفسير الموضوعي

المبحث الأول: نماذج تطبيقية للتفسير الموضوعي التجميعي

المبحث الثاني: نماذج تطبيقية للتفسير الموضوعي الكشفي

المبحث الثالث: نماذج تطبيقية للتفسير الموضوعي للمصطلح
القرآني

سنحاول تقديم بعض النماذج التطبيقية لمنهج التفسير الموضوعي مع القيام بدراساتها وتقييمها انطلاقاً من الجانب النظري للمنهج، وقبل ذلك يجدر بنا تسجيل ملاحظة نراها مهمة وهي أن بعض النماذج كانت سابقة للظهور قبل التنظير للمنهج مثل موضوع "العرب في القرآن" للشيخ عبد الحميد بن باديس، وكذلك بعض النماذج التي طبقت المنهج دون إدراك أصحابها له، مثل العمل القيم الذي قدمه عادل عبد الله القلقيلي حول الهندسة الإلهية للسورة القرآنية - كما سماها - وهي تدخل ضمن التفسير الموضوعي للسورة القرآنية، بل وأكثر من ذلك فهي في رأيي تمثل النموذج الناصح لتطبيق هذا المنهج.

إن الهدف الأساسي من التعرض بالدراسة لهذه النماذج هو تقريب طريقة استخدام المنهج للطلبة المقبلين على استعماله سواء في بحوثهم ودراساتهم، أو حتى في عملهم الدعوي المباشر في المدارس والمساجد. ومما يجب التأكيد عليه هو المرونة في استخدام المنهج، ذلك أن الجانب التطبيقي يختلف عن التنظير وما تقوله القواعد، لأن التطبيق هو ممارسة مستمرة تبدأ بشكل بسيط مع بعض الأخطاء والهفوات وتستمر في التكامل حتى تقف وتشتد وتستوي على سوقها. سنتعرض لمثال أو مثالين تطبيقيين كل نوع من أنواع التفسير الموضوعي لملاحظة طريقة استخدام المنهج، وكيفية استعمال الخطوات مع القيام بتقييم هذه النماذج للاستفادة من هذا المنهج في دراسة وتطبيق قواعده.

المبحث الأول: نماذج تطبيقية للتفسير الموضوعي التجميعي

نقترح كيفية تطبيق خطوات ومراحل منهج التفسير الموضوعي التجميعي نموذجاً تطبيقياً للشيخ عبد الحميد بن باديس وهو "العرب في القرآن"، وهذا النموذج كما هو معلوم سابق لظهور التنظير للمنهج.

ثم نعرض لنماذج جاءت بعد ظهور المنهج. ونركز على موضوع القرآن في القرآن لأحمد رحمان، ثم موضوع: منهج إبراهيم عليه السلام في الدعوة كما عرضه القرآن الكريم لعباس عوض الله عباس. **النموذج الأول: "العرب في القرآن".**

عندما نطلع على موضوع العرب في القرآن سنجد أن من قاموا بتسجيله قد عملوا على تقسيمه إلى عناصر جزئية، وأولى هذه العناصر: "واجب المسلمين العناية بتاريخهم ومدنيتهم"، وفي هذا الفرع نلاحظ أن ابن باديس يريد من دراسة هذا الموضوع إعادة تنبيه العرب إلى أن لهم تاريخ ومدينة عظيمة، وأن القرآن قد شرفهم بتشريف لغتهم انطلاقاً من قوله تعالى: (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) [الزخرف: 3]، ثم يذهب إلى الحديث عن قومية العرب واعتزازهم بجنسهم.¹

ينتقل بعد ذلك إلى عنصر آخر وهو خصائص الطبيعة العربية ويتناول فيه تعريف العرب بالقرآن من قوله عز وجل: (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ) [الزخرف: 44]، وهذا التشريف يقتضي أعباء واجبة التنفيذ وفي العنصر التالي: "الفروق بين العرب و بني إسرائيل"، يوضح هذه الأعباء وأهمها إنقاذ أنفسهم، وإنقاذ غيرهم، أما بنو إسرائيل فيلاحظ من خلال النصوص القرآنية أنهم لم يكلفوا إلا بإنقاذ أنفسهم، وهذا هو الفرق بينهم وبين العرب.² ثم يتحدث عن السر في اختيار العرب للرسالة العامة، وذلك يعود إلى أن صميم الجزيرة العربية كان عريقاً في الصفات التي تسمى العصر لأجلها جاهلياً، لكنه كان بعيداً عن الذل الذي يقتل العزة والشرف في النفوس.³

1 عبد الحميد بن باديس، تفسير ابن باديس، مرجع سابق، ص 504-505.

2 المرجع نفسه، ص 505.

3 ابن باديس، المرجع السابق، ص 505.

وعلى هذا الأساس فإن إشكالية الدراسة عند ابن باديس هي كيفية إعادة العزة والإباء لنفوس العرب، والطريق إلى تصحيح تصورهم حول أنفسهم، لهذا نجد أن العنصر التالي هو "معلومات مغلوبة عن العرب" وهنا يؤكد على أن العرب مظلومون في التاريخ، والذي زاد في تأكيد هذه التصورات عنهم تقبيح القرآن لجاهليتهم، ولأجل تصحيح هذه التصورات يعود ابن باديس إلى القرآن نفسه، لأنه أنصفهم من جهة كما قبح جاهليتهم من جهة أخرى.

إنه يعيد طرح فرضية أخرى، تعيد النظر في تاريخ العرب، قال: «والتاريخ يجب ألا ينظر في جهة واحدة، بل ينظر من جهات متعددة»¹، وهنا يبدأ في استعراض مدنيات العرب، ويبدأ بأمة عاد، انطلاقاً من قوله تعالى: (فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً) [فصلت: 15]. النظرة التاريخية تبين أن عاد كانت أمة قوية بمؤهلات طبيعية لتعمير الأرض وبناء مدينة عظيمة، ولكن ما يعاب عليها هو استعمالها هذه القوة في البغي والطغيان.

ثم يعود إلى قوله عز وجل: (أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ {128} وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ {129} وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ {130} فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا {131}) [الشعراء: 128-131]، فهذه الآية تكشف نواحي من تاريخ العرب، وتظهر مبلغ مدنياتهم، ومحط الإنكار عليهم هو العبث في البناء الشامخ، والذي من المفروض أن يكون لمقاصد صالحة، لا للعبث واللهو والباطل. ثم يعود إلى تحديد معنى المصانع، حيث يقول المفسرون إنها مجاري المياه، أو القصور، وابن باديس يرفض مثل هذه المعاني، ويذهب إلى أنها مصانع حقيقية للأدوات التي تستلزمها الحضارة ويقتضيها العمران². ويستمر على هذا المنوال في تصحيح الصورة الخاطئة عن العرب، خاصة منها التي تقول أن العرب أمة شعر وبيان، وليست أمة بناء وعمران.

ثم يبدأ في تعداد الحضارات العربية الواحدة تلو الأخرى من إرم ذات العماد وثمود ثم اليمن ليأتي على قصة ملكة سبأ واعتمادهم الشورى ولو كان الحاكم امرأة كل ذلك ليؤكد على اعتداد العربي بقوميته، وهنا يصل إلى وجوب افتخار العربي والجزائري خاصة بجنسه وانتمائه في وجه الاستعمار الذي يعمل ليل نهار للحط من قيمة الشعوب المستعمرة والحط من معنوياتها وقيمها الدينية والحضارية.

ثم يذكر خصائص هذه الأمة العربية التي كلفت بحمل الرسالة وتحرير الناس من عبادة الأصنام ومن الرضوخ للطغاة والمتجبرين، ولا يتم ذلك إلا بالتححر من عقدة النقص والتحرر من الصورة النمطية التي صنعها الاستعمار حول الجزائريين وغيرهم من الشعوب المستضعفة، ولن تتم مواجهة مكائد المستعمر إلا بالعودة إلى الإسلام والقرآن.

النموذج الثاني: "الران في القرآن"

عندما درس أحمد رحماني موضوع الران قسمه إلى مبحثين، تناول في الأول: حقيقته، تكونه، وعوامل تورمه، وفي الثاني: نتائج الران وآثاره.

لقد انطلق في دراسته من قوله عز وجل (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ {10} الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ {11} وَمَا يُكْذَبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ {12} إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ {13} كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ {14}) [المطففين: 10-14].

ويؤكد أن الران ظاهرة مرضية وحالة نفسية وعقلية عبر عنها القرآن بمفردات متعددة منها:

¹ المرجع نفسه، ص 510.

² المرجع نفسه، ص 512.

الأقفال، المرض، الختم، الوقر، العمى، الطبع، الغشاوة، الزيغ¹، وحقيقة هذه الحالة أنها حجاب كثيف يطمس البصائر حتى لا تنعكس فيها صورة الحق جلية واضحة، لهذا ينتقل بعد ذلك لبيان كيف يتكون الران، ويصل إلى أن الران مكتسب عن طريق الإصرار على الذنوب.²

عندما يأتي إلى الحديث عن عوامل تورم الران وتضخمه يعود إلى قوله عز وجل: (وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا {82}) [الإسراء: 82] ليصل إلى أن "عملية تورم الران وانتفاخه حتى يتمكن من القلوب والعقول والنفوس إنما مرده أصلا إلى العصيان المتكرر الذي يورث ما يشبه العناد، كما أن صفاء النفوس [...] إنما مرجعها أصلا إلى التوبة والرجوع إلى الله".³

هنا يطرح سؤالاً مهماً طرحه غيره من المفسرين: لماذا يزداد الكافر كفرا كلما سمع القرآن؟ ويجب بعد ذلك أن القرآن يعمل في اتجاهين متعاكسين بحيث يكون كتاب هدى وكتاب إضلال في الوقت نفسه، والحالة الأخيرة سببها أن بعض الناس يقبل على النبي عليه الصلاة والسلام بخلفية مسبقة، تحمل بذور العداوة والحسد والتمسك بالسلطان فيؤدي ذلك إلى النفور والكفر، لأن المعاني السامية تتعارض مع مكتسباتهم مما يحملهم على الصدود،⁴ ومثل هؤلاء لا يمكن شفاؤهم إلا بالخدمات الكبرى لقوله تعالى: (فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ {84}) [غافر: 84].

في المبحث المتعلق بنتائج الران وآثاره يتناول آثار الران ومنها امتناع الفهم (الطبع القلبي)⁵، لقوله جل جلاله: (وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ) [محمد: 16]، ومن الآثار كذلك قسوة القلب لقوله تعالى: (فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِّثَاقَهُمْ لَعْنَاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهَا وَتَسُوهُنَّ لَمَّا كُتِبَ لَهُنَّ لَئِن لَّمْ يَؤُودُنِي بَاطِلٌ يَأْتِيَنِي لَأَنذَرَنَّ وَأَوَدُّ أَنَّ يَأْتِيَنِي بِرِجَالٍ مِّنَ السَّمَاءِ نَزَّالِينَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَوَلَمْ يُؤْتَكُمُ اللَّهُ الْبَصِيرَةَ) [البقرة: 88].

يصل في الأخير إلى التصور العام حول هذا المرض فيقول: «إن الران مرض نفسي ينشأ عن الإصرار على الذنوب [...] ويتمظهر على حالات [...] فمنها: الأقفال، والمرض، والختم، والوقر، والعمى، والطبع، والغشاوة، والزيغ، و الغلف [...] و هذا المرض إذا بلغ مبلغا كبيرا يمنع صاحبه من فقه الموعدة وطرق الاستفادة منها، ومن ثم لا تزيده إلا نفورا وطغيانا...»⁸.

لقد استطاع أحمد رحماني بدراسة هذا الموضوع تشريح المرض وبيان كنهه، وتقديم الإجابة عن كثير من التساؤلات، وقدم لنا خلاصة توضح التصور المستخرج من دراسة هذا المرض، وقد تمكن من استقراء الآيات وتصنيفها، وتحكم في تقسيم الموضوع إلى جزئيات، وقام بتصنيف الآيات تصنيفا

¹ أحمد رحماني، التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، ص 156.

² المرجع نفسه، ص 160.

³ المرجع نفسه، ص 163.

⁴ م، ن، ص 165.

⁵ م، ن، ص 173.

⁶ أحمد رحماني، المرجع نفسه، ص 187.

⁷ المرجع نفسه، ص 197.

⁸ المرجع نفسه، ص 199-200.

جيدا، وقدم فرضيات كتفسيرات مؤقتة ليدل على صحتها بعد ذلك، كما تمكن من ربط عناصر الموضوع، وبنائه بناء محكما.

يبقى أنه لم يشر إلى إشكالية الموضوع ودواعي وأسباب بحثه، رغم بداهيتها، وأظن أنه درس هذا الموضوع انطلاقا من الواقع الذي عاشه في مواجهة عتاة الشيوعيين، خاصة عندما يقوم بنقده الأدبي لرواياتهم، وهو المتخصص كما هو معلوم في النقد الأدبي، وخاصة في علم النفس الأدبي

النموذج الثالث: "منهج إبراهيم عليه السلام في الدعوة كما عرضه القرآن الكريم"

هذا النموذج قدمه عباس عوض الله عباس في كتابه محاضرات في التفسير الموضوعي، قسم هذه المحاضرة إلى مبحثين، تناول في الأول: صفات إبراهيم عليه السلام وأثرها في الدعوة، أما الثاني فكان حول أساليب إبراهيم الدعوية كما عرضها القرآن الكريم.

في التمهيد الذي قدمه للموضوع لم يشر إلى نشأة إبراهيم عليه السلام، ولم يوضح لنا أسئلة البحث، ودواعي التعرض لأسلوب دعوة إبراهيم عليه السلام وهذه من بين الملاحظات التي تسجل على معظم الباحثين في هذا المجال.

وفي المبحث الأول الخاص بصفات إبراهيم عليه السلام يشير إلى الصفات التي استخرجها من الآيات، ومنها مثلا أنه كان قانتا، حنيفا، شاكرا لنعم الله، أوها، حلما، وكان يستغفر لأبيه، وكان سخيا كريما، كما وصف عز وجل بالخليل، قال تعالى: (وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا) [النساء: 125].

وبعد ذلك ينتقل إلى أساليب إبراهيم الدعوية ويقسمها على الشكل التالي:

أولا: الأساليب النظرية

(أ) المناظرة والمحاجة لقوله تعالى: { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ } [البقرة: 258]، ويذكر محاجة إبراهيم لهذا الملك، ومحاجته لوالده ولقومه.

(ب) المعاريض، وذلك انطلاقا من قوله تعالى: { قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ } [62] قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ {63} [الأنبياء: 62-63].

(ج) الاستعطاف، ويظهر هذا من محاوره إبراهيم لأبيه آزر.¹

(د) استعارة الخصم، وذلك من قوله تعالى: { أَفَ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } [67] [الأنبياء: 67].

ثانيا: الأساليب العملية.

(أ) القدوة، لقد جعل إبراهيم عليه السلام إمام للناس، جاء في الآية: (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ {124} [البقرة: 124].

(ب) البداية بالأهم، لقوله تعالى: (وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَانْقُصُوا لَكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) [العنكبوت: 12].

(ج) البداية بالأقربين، لقوله تعالى: (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا {42} [مريم: 42].

(د) اللين أولا ثم الشدة، من قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ {74} [الأنعام: 74].

(هـ) التحدي، قال تعالى على لسان إبراهيم: (وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ {57} [البقرة: 57].

¹ عباس عوض الله عباس، محاضرات في التفسير الموضوعي، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط: 1428 هـ - 2007 م، ص 108-98.

[الأنبياء: 57].

(و) المفاصلة، يقول تعالى في سورة مريم: (وَأَعْتَزَلِكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا {48}) [مريم: 48].

(ز) الدعاء والتضرع إلى الله، قال تعالى: (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ {127}) [البقرة: 127].

(ح) تحطيم الأصنام، قال تعالى: (فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِتِهِمْ فَقَالَ أَلَّا تَأْكُلُونَ {91} مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ {92} فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ {93}) [الصافات: 91-93].

(ط) الهجرة، قال عز وجل: (وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ {71}) [الأنبياء: 71].

(ن) بناء البيت، يقول تعالى: (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ {127}) [البقرة: 127].

(ك) المبادرة بامثال أمر الله بذبح ابنه إسماعيل.

لقد أجاد عوض الله عباس في استقراء الآيات وتصنيفها لتقديم عرض عام عن منهج إبراهيم عليه السلام في الدعوة، إلا أنه أغفل تقديم إشكالية الموضوع، ولم يقدم لنا مفردات ومصطلحات الموضوع، كما لم يتدخل في تفسير الآيات بتقديم فرضيات جديدة أو تفسيرات مؤقتة يبحث عن أدلتها بعد ذلك، وهذا يعود لغياب أسئلة وإشكالية الموضوع، وحدوده ومجاله¹.

ومعلوم أن الدعوة تتوجه إلى طرف آخر مخالف في الرأي والعقيدة، ولهذا لا يمكننا تقبل بعض العناصر التي أدخلها في المنهج الدعوي من مثل: بناء البيت، والمبادرة بامثال أمر الله تعالى بذبح إسماعيل، لأن هذه الأمور حدثت بعيدا عن مجال الدعوة التي وجهها لقومه في العراق. والملاحظ لذلك على هذه الدراسة خلطها بين المنهج الدعوي، وبين المراحل التاريخية لوقائع قصة إبراهيم عليه السلام.

كان من الممكن للباحث أن يطرح سؤالاً معيناً ومهماً: لماذا لم يعاقب الله عز وجل قوم إبراهيم؟ لقد كانت دعوته سلمية إلى أبعد الحدود بحيث أن القرآن الكريم لم يذكر أن الله عاقب قومه بمثل ما عوقب به أقوام أنبياء آخرين كنوح وصالح وشعيب؟ ما الذي يميز المنهج الدعوي لإبراهيم عليه السلام عن غيره من المناهج؟ هناك أسئلة كثيرة كان يحسن الإجابة عنها، وهذا لعلاج الانحرافات التي تحدث في عمل الحالات الدعوية المعاصرة، والتي أوصلت المجتمعات الإسلامية إلى التكفير والتبديع والفتن والحروب.

هذه بعض النماذج التطبيقية لمنهج التفسير الموضوعي التجميعي، وهناك نماذج عديدة يمكن دراستها والاستفادة منها، مثل موضوع "الشورى في القرآن" لصلاح عبد الفتاح الخالدي، و"الألوهية من خلال آيات القرآن الكريم" لمصطفى مسلم.

وهناك جهود عديدة تدور في هذا المجال وإن كانت تشير إلى المنهج بطريقة مختلفة، فمثلا عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني يتحدث عن القاعدة الأولى من قواعد التدبر الأمثل عنة موضوع السورة والجملة وارتباطها الموضوعي بما تفرق في القرآن، قال: "القاعدة الأولى حول ارتباط الجملة القرآنية بموضوع السورة وارتباطها الموضوعي بما تفرق في القرآن المجيد"².

¹ عباس عوض الله عباس، المرجع نفسه، ص 109-121.

² عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل، دار العلم، دمشق، سوريا، ط2: 1409 هـ- 1989 م، ص 13.

ويقدم مثالا لذلك موضوع الاستهزاء بآيات الله تعالى¹، وموضوع توجيه المؤمنين لقطع علائق قلوبهم بالاعتزاز بغير الله. لقد تتبع نصوص هذا الموضوع تتبعا زمنيا من المرحلة المكية إلى المدنية ليلحظ ترابط النصوص حول هذه الجزئية ترابطا تكامليا، مع ارتباط كل نص منها بعناصر السورة.²

المبحث الثاني: نماذج تطبيقية للتفسير الموضوعي الكشفي

اهتم الكثير من المفسرين بالبحث عن بيان موضوعات السور القرآنية رغم عدم اعتماد البعض منهم على منهج التفسير الموضوعي للسورة القرآنية، رغم ذلك فإن جهودهم تصب في الاتجاه نفسه، فهذا مثلا عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني وضع القاعدة الثانية من قواعد التدبر الأمثل بعنوان "حول وحدة موضوع السورة القرآنية"، يقول: "على متدبر كتاب الله أن يضع نصب عينيه ضمن أهداف بحثه وتدبره التوصل إلى اكتشاف الموضوع الذي تدور حوله السورة القرآنية"³، ويقوم بتطبيق القاعدة على سورتي الرعد والقيامة.

وفي الإطار نفسه نجد بكري شيخ أمين في كتابه "التعبير الفني في القرآن" يعرض في أحد الفصول إلى هيكل السورة القرآنية من مطلع وجسم وخاتمة، وهو يرى أن السور تنقسم إلى قسمين: "قسم تكون من موضوع واحد، وهو غالب السور القصيرة ... وقسم تكون من موضوعات شتى، وهو القسم الغالب على السور كالبقرة وآل عمران..."⁴، ثم يأتي على ذكر العلاقات بين الآيات القرآنية مع بعضها البعض ليصل إلى الحديث عن افتتاحات السور وخواتمها⁵، وهكذا فحتى الباحثين في المجال الفني الأدبي للقرآن يقرون بوجود موضوعات تدور حولها آيات السورة القرآنية الواحدة.

ولبيان بعض النماذج التطبيقية للبحث عن موضوعات السور القرآنية نأخذ مثالين، أولها لأحمد رحماني، حيث يدرس فيه سورة الملك محاولا استخراج موضوع السورة وهدفها، والثاني لعادل عبد الله القلقيلي والمتعلق بسورة التين، ورغم أنه ينطلق من منظور آخر لكنه قريب من التفسير الموضوعي الكشفي، فهو يبحث عن الهندسة الإلهية للسورة انطلاقا من تخصصه كمهندس يبني التركيب للحصول على البناء المتكامل.

النموذج الأول: سورة الملك

في بداية دراسة سورة الملك يبدأ أحمد رحماني بعنوان الفكري المهيمنة أو موضوع السور حيث وانطلاقا من الآية الأولى، (تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {1}) [الملك: 1]، وانطلاقا كذلك من أسماء السورة (الملك، تبارك) فإنه يقر بأنهما "اسمان من أقرب الأسماء الدلالة على موضوعها"⁶، وهذه الطريقة تعتمد على البحث عن موضوع السورة من خلال اسمها، رغم وجود آراء تخالف هذه النظرة.

بعد ذلك يتوجه أستاذنا أحمد رحماني لطرح التساؤلات التالية:

- 1- هل يكون الموضوع هو تنزيه الله من جهة الملك ومطلق التصرف في الكون؟
- 2- أم يكون الوضع هو بيان حقيقة الملك وحقيقة القدرة
- 3- أم يكون الموضوع هو بيان أن تدبير العالم وسلطة التصرف فيه لله وحده؟
- 4- وهل يتحدد الموضوع من الكلمة الأولى وما يليها؟ أم من قوله (بيده الملك)؟ أم من الآية

¹ المرجع نفسه ، ص 18-19.

² المرجع نفسه ، ص 26.

³ المرجع نفسه ، ص 27.

⁴ بكري شيخ أمين، التعبير الفني في القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط4: 1400هـ-1980م، ص 209.

⁵ المرجع نفسه، ص 210-214.

⁶ أحمد رحماني، المرجع السابق، ص 136.

الأولى بأكملها¹؟

هذه هي مرحلة تقديم الافتراضات والاحتمالات حول موضوع السورة، وهي المرحلة التي لا يعتمد عليها معظم الباحثين في هذا المنهج. من هذه الأسئلة -رغم أنها تدور كلها حول اسم السورة- يبدأ أحمد رحماني في التدليل على مركزية الاسم في تحديد الموضوع، فبما أن السورة مكية، فهي تتناول مسائل العقيدة لذلك يجب تحليل السورة في ضوء تلك الاحتمالات ليصل للتحديد الدقيق لموضوع السورة، فهو يقدم محاولة في شكل فرضية واحتمالات ثم يحاول إثبات هذه الفرضية وهذه الاحتمالات.

قبل البدء يقوم بالتذكير ببعض القواعد منها:

1- دور المطلع في تحديد الموضوع.

2- علاقة المطلع بالخاتمة.

3- تناسب الآيات.

4- عنصر التكرار ودوره في تحديد الموضوع، بما في ذلك التكرار الصوتي للفاصلة² بعد ذلك يبدأ في تحليل الآيات وتركيبها في النسق العام للسورة.

ينطلق من مطلع السورة (تبارك...) ويصل إلى أن معنى الآية دام وثبت الله الذي هو المالك الحق المهيم على الكون كله، الذي لا يعجزه شيء ولا يحول دون إرادته شيء لأنه غالب على أمره.³ ثم يأتي إلى علاقة بقية الآيات بافتتاح السورة، وهنا يتناول التناسب الشكلي حيث يقسم السورة إلى قسمين، القسم الأول من الآية الثانية إلى الواحدة والعشرين حيث تختتم كلها بقيمة صوتية واحدة هي الراء مسبوقه بساكن، والآيات (2-21) في تصوره تحليل للآية الأولى، ودليله على ذلك وجود الاسم الموصول (الذي) في بدايات الآيات (الذي خلق الموت-الذي خلق سبع سموات ... أمن هذا الذي يرزقكم).⁴

القسم الثاني يبدأ من الآية الثانية والعشرين إلى آخر السورة، وهو يتميز بقيمة صوتية تتشكل من ساكن تتبعه إما نون أو ميم (مستقيم -تشكرون -تحشرون.. معين) والأسلوب الإنشائي المبني على الأمر والاستفهام (أفمن يمشي- قل هو الذي أنشأكم... قل هو الرحمن- قل رأيتم)⁵، ليصل إلى النتيجة التالية: "ويبدو لي أن القسم الأول مبني على القيمة الصوتية (ساكن+ر) (قدير،نفور) كان مقصده بيان ملك الله، والقسم الثاني المبني على القيمة الصوتية (ساكن + ن) كما في (مستقي،، تشكرون، معين) كان مقصده تصحيح التصورات حول ملك الله..."⁶

ثم يبدأ بعد ذلك في دراسة جانب التناسب المعنوي وهنا يقوم بتفسير الآيات لإثبات ما ذهب إليه من أن الموضوع هو الملك والقدر، ويبحث في العلاقات والمناسبات الموجودة بين الآيات، يقول مثلا: "ولما كان الكلام السابق كله يهدف إلى إصلاح أمر العقيدة [...] وكان الخلق إزاءه [...] نوعين، نوعاً يرى الحق فيتبعه [...] ونوعاً يلح في الطغيان [...] فقد ناسب أن ينعت النوعان بشكل تصويري [...] فقال: (أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ {22}) [الملك: 22]، فقد شبه حال الكافر الفار من الهدى بحال الحيوان يسير مكبا على وجهه لا يرى السبيل أبداً، وشبه

¹ أحمد رحماني، التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، ص 139.

² المرجع نفسه، ص 140.

³ المرجع نفسه، ص 142.

⁴ المرجع نفسه، ص 142-143.

⁵ المرجع نفسه، ص 143.

⁶ المرجع نفسه، ص 144.

حال المؤمن في إتباعه الهدى مجال من يمشي سويا ويتبين معالم الطريق"¹، وفي الأخير يصل إلى هدف السورة فإذا كان الموضوع هو بيان ملك الله العظيم، فإن الهدف هو إصلاح العقيدة في ضمير الإنسان من جهة هذا الموضوع بالذات.²

الملاحظ على هذه الدراسة أنها تضيف بعدا آخر للتفسير الموضوعي الكشفي، وهو التناسب الشكلي، خاصة منه الجانب الصوتي، الذي لم يشر إليه المنظرون السابقون. لقد اعتمد أحمد رحماني مقياسا لتحديد الموضوعات الجزئية، وهذا ما يحسب له، ومع ذلك فإن الملاحظ كذلك سيطرة اسم السورة ومطلعها في تحديد موضوعها، وهذا يؤدي بالباحث إلى تطويع جميع الآيات والمعاني لخدمة هذا المنظور، وقد يصح ذلك مع بعض السور، ولكنه قد لا يستقيم مع سور أخرى.

النموذج الثاني: سورة التين

بداية سنلاحظ في هذا النموذج عدم سيطرة اسم السورة على تصور الباحث عند قيامه بالبحث عن موضوع السورة، يبدأ عادل القلقيلي بالحديث عن القسم فقد أقسم الله عز وجل بفاكهتين (التين، والزيتون)، ومكانين (الطور، والبلد الأمين)، فهل هناك ارتباط معنوي بين هذه الأشياء وباقي السورة؟³ يأتي القلقيلي بالتفسير العادي الموثق في كتب التفسير للآيات، ثم يصل إلى أنها تدور حول معاني القمة ثم الحضيض ثم الأمل، كيف ذلك؟ يبدأ في التفصيل، فيقسم السورة إلى عناصر: أولا: التين والزيتون، التين شجرة حلوة، والزيتون شديدة المرارة، فالتين رمز لحالة آدم عليه السلام في الجنة، والزيتون لحالة إنزاله إلى الأرض.

ثانيا: طور سنين وهذا البلد الأمين، جبل الطور يرمز من جهة إلى القمة الإيمانية التي وصلها موسى عليه السلام عند ملاقاته ربه، وينزل في الوقت نفسه إلى الحضيض الذي سقط فيه بنو إسرائيل عند إتباعهم للسامري. أما البلد الأمين فيرمز للقمة التي وصلها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام عند بناء الكعبة، وإلى الحضيض الذي وصله العرب بإشراكهم بالله وتحويلهم الكعبة إلى بيت لعبادة الآلهة. ترتبط هذه الآيات بالتي تليها من هذه الناحية، فالله تعالى خلق الإنسان (آدم) في أحسن تقويم وأدخله الجنة، لكن عصيانه هو الذي أنزله إلى أسفل سافلين، فمن قمة الجنة إلى حضيض الأرض. ولكي يعود الإنسان إلى حالته فما عليه إلا الإيمان والعمل الصالح، أي مواجهة شهواته ولذاته، وعدم السقوط في حبال للنفس والشيطان، فهذا هو الأمل الوحيد للرجوع إلى الجنة (القمة). فما يكذبك بالدين؟ أي أن الذي أوقع بآدم تلك العقوبة قادر على أن يوقع بك العقوبة يوم الحساب، وهذه حكمة الله تعالى في خلقه. (أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ).

وهكذا فموضوع السورة وهيكلها الهندسي ينبني على وجود القمة، والنزول إلى الحضيض، ثم تشير إلى الأمل، وذلك بالإيمان والعمل الصالح لكي يعود الإنسان إلى القمة التي كان فيها⁴، لهذا يضع القلقيلي بعد ذلك مخططا رسميا لسورة التين يبين فيه بناء السورة ومحورها⁵، يمكن الرجوع إليه في مكانه

وهنا نشير إلى أن سورة التين تبدأ بأسلوب القسم، وفي هذا الأسلوب نجد: أداة القسم، والمقسم به، والمقسم عليه. وقد ذهب العلماء قديما إلى أن قسم الله عز وجل بشيء ما دليل على عظمته، ثم

¹ أحمد رحماني، التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، ص 151.

² م، ن، ص 153.

³ عادل عبد الله القلقيلي، مرجع سابق، ص 27.

⁴ عادل عبد الله القلقيلي، م، ن، ص 29-33.

⁵ المرجع نفسه، ص 35.

اشتطوا في تخريج دلالات الأمور التي أقسم الله تعالى بها، من مثل الشمس والضحي، العصر، التين والزيتون، لكن المعلم الفراهي أعاد النظر في هذه المسألة، وقال بأنه لا عظمة في هذه الأشياء التي أقسم بها الله عز وجل، وإنما دلالة القسم تتمثل في أن بيان ودليل صحة المقسم عليه هو في المقسم به¹، وساق لذلك أدلة من أشعار العرب وأقوالهم.

وعلى أساس هذه الرؤية فإننا سنجد أن القليلي قد تمكن من الربط بين المقسم به والمقسم عليه رغم عدم اطلاعه على مثل طروحات الفراهي، وهكذا تتوافق الآراء وتنسجم لأن هدفها واحد، فعند القليلي يظهر "الهدف في الهندسة الإلهية للسورة"، وعند عبد الحميد الفراهي يتمثل الهدف في "نظام القرآن".

المبحث الثالث: نماذج للتفسير الموضوعي للمصطلح القرآني

رغم اعتماد الخالدي على التفسير الموضوعي للمصطلح القرآني، إلا أن تطبيقه على دراسة مصطلح الجاهلية كان قريبا من شكل التفسير الموضوعي التجميعي، ورغم أن أحمد رحماني درس موضوع الران في القرآن، إلا أنه والحق يقال كان أقرب إلى دراسة المصطلح القرآني خاصة عند مقارنته هذا المصطلح بالمفردات المقاربة له مثل: القفل، الختم، الطبع...

هناك دراسات عديدة اهتمت بالمفردة القرآنية، رغم أن منطلقها لم يكن منهج التفسير الموضوعي إلا أنها تصب في مجال دراسة وبيان المفردات والمصطلحات القرآنية، ورغم أنها تعتمد اللغة في مقارباتها وفهمها، ولا تعطي بالا للواقع الاجتماعي والكوني، إلا أنها تصل إلى نتائج لا بأس بها. من هذه الدراسات مثلا: الدراسات التي قدمها محمد شحورر بداية في كتابه "الكتاب والقرآن"، ووصولاً إلى "الإسلام والإيمان"، والذي سنعرض من خلاله نموذجا بسيطا باختصار، كما نشير إلى الأمثلة التي قدمها عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني في كتابه "قواعد التدبر الأمثل".

النموذج الأول: الذنب والمغفرة

يحل شحورر بداية أنه يعتمد منهجا يقوم على نفي الترادف بين المفردات العربية، يقول: "لقد وقفنا أمام هذه المصطلحات في قراءتنا المعاصرة للتزليل، منطلقين من نفي الترادف في مفرداته [...] فرأينا أن الذنب والسيئة والخطيئة وأن المغفرة والتكفير والصفح وإن كانت مجموعة مفردات تأتي تحت عنوان عريض، إلا أنها بينها في المجموعة الواحدة فروقات لا يمكن معها اعتبار هذه"².

يلاحظ شحورر أن الذنب -عندما يذكر في القرآن- فإنه يأتي مرتبطا بالمغفرة، أما السيئة فترتبط عند ذكرها بالتكفير، ولا نلاحظ اقتران الذنب بالتكفير، ولا اقتران السيئة بالمغفرة، من بين الأمثلة على ذلك الآية التي جاء فيها على لسان المؤمنين: (فَاعْفُزْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ) [آل عمران: 193].

ثم يواصل دراسته ليصل إلى القول: "نفهم أن للذنب والسيئة علاقة ببعضهما البعض، لكن الذنب قد يكون بدون سيئة، أما السيئة فلا تكون بدون ذنب، فما هو الذنب بدون سيئة؟ ويشرح ذلك ويمثل بإفطار الإنسان في رمضان، فهذا ذنب، وليس سيئة لأنه لم سيئ إلى أحد، والله لا يساء ولا يحسن إليه فهو غني عن العالمين، قال تعالى: (إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا) [الإسراء: 7].

فالإحسان والإساءة تكون من الإنسان إلى الإنسان، أو منه إلى سائر المخلوقات والله إنما يعبد طاعة ومعصية، والخلاصة أن "الذنوب بدون سيئات لا تكون إلا مع الله، ولأنها كذلك فهي قابلة

¹ بكري شيخ أمين، مرجع سابق، ص 241-242.

² محمد شحورر، الإسلام والإيمان منظومة القيم، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط1: 1996م، ص 333.

للمغفرة..."¹

أما السيئة فتكون بين الإنسان والمخلوقات الأخرى، فإذا غش أحد صاحبه، فقد ارتكب بحقه ذنبا لا يزول إلا بإصلاح آثار الإساءة، وإذا أراد الله أن يغفر له فلا بد من إرضاء الآخر وتعويض الضرر الذي لحقه من الغش، ومن هنا نجد أن التكفير يرتبط بالسيئة²، وعليه فالذنوب يغتفر ولا نقول عنه يكفر، لأنه بين العبد وربّه، بينما السيئة يقال عنها تغتفر وتكفر لأنها بين العبد والناس والمخلوقات. ويستمر محمد شحرور بعد ذلك في بيان العلاقة بين الذنب والسيئة والخطيئة، ثم بين المغفرة والتكفير والصفح، كما يفرق في مواضيع أخرى بين الإسلام والإيمان وبين العباد والعبيد، وبين الأبوين والوالدين، ويصل إلى نتائج تحتاج إلى دراسة وتقييم من طرف المهتمين بالمفردات والمصطلحات القرآنية. إنه يعيد النظر في كثير من المسلمات انطلاقا من المقارنة بين الآيات القرآنية وهذا محفز للباحثين للتعمق في مثل هذه الدراسات.

النموذج الثاني: الدحو والطحو

في القاعدة السادسة عشرة من قواعد التدبر الأمثل والتي تدور حول ضرورة البحث في معاني الكلمات القرآنية بحثا علميا لغويا ينبه الميداني إلى وجوب التحري في دلالات الكلمات عند العرب تحريا علميا، ويؤكد على اعتماد دلالات الكلمات العربية في عصر نزول القرآن لا وفق ما تطورت إليه الكلمة بعد ذلك في العصور الإسلامية³، ورغم أن القيام بهذا العمل يعد من الطالب التي يبتغيها المستشرقون إلا أن العائق أمام مثل هذا الأمر هو عدم توفر الأدلة القوية لتفضيل معنى على آخر.

لهذا يذهب الميداني إلى الاعتماد على المرويات الصحيحة المأثورة عن العرب في عصر النزول. ولكن الداعي في الحقيقة لمثل هذا العمل هو طروء وتجدد المعارف الإنسانية حول الكون والحياة، والتي تعيد النظر في كثير من المسلمات القديمة مثل استواء الأرض أو كرويتها.

لأجل دراسة هذه المفردات، وبيان معنى الدحو والطحو انطلاقا من قوله تعالى: (وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا {30}) [النازعات:30]، يعود الميداني إلى لسان العرب فيجد أن البسط والتوسيع من معاني الدحو، وهذا الذي أخذ به المفسرون، ولكن هناك معان أخرى من بينها الرمي بالحجر، حيث جاء في حديث أبي رافع: "كنت ألعب الحسن والحسين رضوان الله عليهما بالمداحي، وهي أحجار أمثال القرصة، كانوا يحفرون حفرة ويدحون فيها بتلك الأحجار، فإن وقع الحجر فيها غلب صاحبها، وإن لم يقع غلب..."⁴، ويصل إلى أن الدحو فيه حركتين، حركة على خط في مسيرها، وحركة دورانية حول نفسه، وهذا حال الأرض في حركة حول الشمس وفي حركة حول نفسها.⁵

ثم يأتي إلى مفردة طحا في قوله عز وجل: (وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا {5} وَالْأَرْضَ وَمَا طَحَاهَا {6}) [الشمس: 5-6]، فمن معانيها في اللغة الدفع، يقال: القوم يطحا بعضهم بعضا أي يدفع بعضهم بعضا.⁶ ويصل بعد ذلك إلى القول: «وهذه المعاني مطابقة لما عليه واقع الأرض، فلا يوجد مقتضى إلى الأخذ بالمعاني التي أخذ بها بعض أهل التأويل السابقين المتقدمين معدورين، إذ لم تكن حقيقة الأرض معلومة لديهم، وقد أخذوا بما ظهر منها».⁷

¹ محمد شحرور، المرجع السابق، ص 335.

² المرجع نفسه، ص 336.

³ الميداني، م.س، ص 317-319.

⁴ المرجع نفسه، ص 322.

⁵ المرجع نفسه، ص 322-323.

⁶ الميداني، المرجع السابق، ص 323.

⁷ المرجع نفسه، ص 323.

وهذا هو المبتغى من إعادة النظر في المفردات والمصطلحات القرآنية، إن الواقع له حضور كبير في حياتنا، وكل دراسة عليها أن تنطلق من الواقع لتصل إلى الفهم الصحيح له وللقرآن، لأن القرآن لا يخالف الواقع، وكذلك الواقع لا يمكنه الخروج عن سنة الله في خلقه، وإن خرج فذلك هو الخلل والفساد.

كما أن التسليم للمتقدمين بكل ما قالوه ليس من البحث العلمي الذي يهدف إلى دراسة المسلمات والنظر فيها للوصول إلى الفهم الصحيح للنص والواقع. لقد أعطى الميداني أمثلة عديدة لتطبيق هذه القاعدة منها مثلا معاني المفردات المتقاربة، مثل: الظن، الحسب، الشك، العلم، اليقين، ومثال حول الكلمات: الصراط، المنهاج، السبيل، الطريق...

ويضع قاعدة حول تردد النص القرآني بين دلالتين أو أكثر¹، ويقدم لذلك أمثلة: المكر، الكيد... وهذه الأمثلة يمكن أن تكون منطلقا لبحوث ودراسات حول هذه الألفاظ والمفردات لكنه دلالاتها ومعانيها، ولفهمها وفهم النص والواقع، لفهم القرآن وفهم الكون والحياة الإنسانية.

¹ المرجع نفسه، ص 453-462.